البناء العلمي

الأكاديمية الإسلامية المفتوحة
www.islamacademy.net
ملتقى العلم والعلماء



السياسة الشرعية (2)

الفصل الدراسي الثالث

معالي الشيخ / د. صالح بن عبدالله بن حميد

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

{الحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

فصل: الثاني من الأموال السلطانية الصدقات.

قال رحمه الله تعالى: وأما الصدقات فهي لمن سمى الله تعالى في كتابه، فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً سأله من الصدقة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لم يرض في الصدقة بقسم نبيٍّ ولا غيره، ولكن جزأها ثمانية أجزاءٍ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» ، فالفقراء والمساكين يجمعهما معنى الحاجة إلى الكفاية، فلا تحل الصدقة لغنيٍّ ولا لقويٍّ مكتسبٍ، والعاملين عليها هم الذين يجبونها ويحفظونها ويكتبونها ونحو ذلك، والمؤلفة قلوبهم سنذكرهم إن شاء الله تعالى في مال الفيء.

وفي الرقاب: يدخل فيه إعانة المكاتبين وافتداء الأسرى، وعتق الرقاب، وهذا أقوى الأقوال فيها.

والغارمين: هم الذين عليهم ديونٌ لا يجدون وفاءها، فيُعطون وفاء ديونهم، ولو كان كثيرًا، إلا أن يكونوا غرموه في معصية الله تعالى، فلا يعطون حتى يتوبوا.}

- مر معنا السياسة الشرعية من حيث معناها، وقلنا إن أصل السياسة إن صح التعبير هي إدارة الناس، أو القيام على الشيء بما يصلحه، أو تدبير شئون الناس بما يصلحهم.

  وأيضًا لها طبعًا ميادين كبيرة جدًا، سوا ء فيما يتعلق بعلاقة الراعي بالرعية، أو الحاكم بالمحكوم، أو الأحكام السلطانية، يعني أحكام الإمامة العظمى وما يتعلق بها.

  أو ولاية شئون الناس وإدارتهم إلى آخره، أيضًا السياسة الشرعية بمعنى التعزيرات الشرعية، الأحكام السياسية التي أيضًا غير منصوصةٍ، وأحياناً طرق القضاء، وما يحقق العدالة، يسمى أيضًا سياسةً شرعيةً.

- حينما قال العلماء: السياسة الشرعية ربطوها أو قيدوها بالشرعية، فما كان ليس منضبطًا بالشرع فلا ينسب إليه، فقيد الشرعية هو الفاصل بين السياسة الشرعية وغيرها من السياسات، بل كما أهل العلم: لا تصح نسبة السياسة إلى الشرع إلا إذا كانت فعلًا متقيدةً بأحكام الشرع وبضوابط الشرع، وبقواعد الشرع، ولهذا ممكن أن نقول إن السياسة الشرعية هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي لهم في الدنيا والآخرة.

- وقلنا كذلك أيضًا لفظ سياسة لم يرد في الكتاب العزيز، لا لفظ سياسة ولا مشتقات ساس، وإن كان- إن صح التعبير- مرادفاتها قد تكون موجودةً كالخلافة والاستخلاف والملك والحكم، والتمكين هذه كلها قد تكون من الدلالات أو المرادفات للمراد بالسياسة الشرعية.

- أما في السنة فجاء حديثٌ، يكاد يكون هو حديث الباب، وهو في الصحيحين في قوله صلى الله عليه وسلم: « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء، فيكثرون » ، فقال الصحابة: فما تأمرنا، قال: « فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوا حقهم الذي جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » ، وهو حديث الباب.

  وقد يكون في قوله صلى الله عليه وسلم : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء » قد يفهم منه أن الأنبياء جاءوا بما يصلح الدين والدنيا، فحينما قال تسوسهم، بمعنى أنه بما يصلح أمر دينهم ودنياهم.

- وكما قلنا السياسة الشرعية تتعلق سواءً بالحكم، وهو علاقة الراعي بالرعية والأحكام السلطانية، أو يتعلق بالقضايا المالية، أو يتعلق بالتوظيف والمرتبات، أو يتعلق بالقضاء والجنايات إلى آخره، وكذلك العلاقات الدولية أو السياسة الدولية.
- والشيخ بنى كتابه على القوة والأمانة، يكاد يكون جعل كتابه قسمين عظيمين، الولايات، والجانب المالي، وتكلمنا فيما مضى عن الولاية فيما يتعلق باختيار الحاكم والأمثل بالأمثل والقوة والأمانة في الولاية، إلى آخره، الآن الجانب الذي نتكلم فيه الجانب المالي.
- وذكر فيه حوالي خمسة أقسامٍ: الفيء والصدقات والغنائم والظلم الصادر من الولاة أو الصادر من الرعية أيضًا، فكل هؤلاء أيضًا داخلون في الأموال، ولهذا هو يقول ما يدخل في باب الأموال السلطانية، أو يتعلق بالفيء، وكذلك الصدقات والفيء والغنيمة وأيضًا الجزء الثالث في هذا الموضوع الذي هو ظلم الولاة والرعاة، ظلم الولاة وظلم الرعية ، قد يقع الظلم من الوالي من حيث أنه يقصر في مسئوليته، ومن الرعية حينما يأخذون ما لا يستحقونه.

وكذلك أيضًا سوف يأتي الكلام عن وجوه صرف هذه الأموال.

فتقريبًا هذا هو نربط به ما مضى بما نحن فيه، فباب الأموال تكلم فيه في آخر لقاءٍ كان عن الغنيمة ما يتعلق بقسمها إلى آخره، والغنائم كما مر معنا، مبحث هذا اليوم يتعلق بالصدقات.

- ولعلنا ذكرنا في الدروس الماضية أن الجانب المالي في الإسلام عجيبٌ من حيث عناية الإسلام به، بل مما لفت له بعض أهل العلم أن الله عزَّوجلَّ المال -إن صح التعبير- بكل مصارفه أو موارده الله عزَّوجلَّ هو الذي تولى قسمته بنفسه.

فهو تولى قسمة المواريث، وتولى قسمة الغنائم، وتولى قسمة الصدقات، هذه كلها الله تولها بنفسه ولم يَكِلها إلى أحدٍ من الأنبياء ولا من غيرهم، فالأولاد في الميراث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ [النساء: 11]، وفي الغنائم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ..﴾ [الأنفال: 41]، وفي الصدقات: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: 60]، مما يدل على أهمية المال، وعلى أن الله هو الذي تولى قسمته بنفسه، وهذا من كمال هذا الدين، أحيانًا قد يفهم فهمٌ قاصرٌ أو ناقصٌ أن الدنيا أو أن المال ليس له مكانٌ، تلك المكانة في الشريعة أو في الدين، بينما المال له مكانته من حيث كسبه ومن حيث إنفاقه.

قال رحمه الله: الثاني -أي من الأموال السلطانية- وأما الصدقات فهي لمن سمى الله تعالى في كتابه.

- كما أشرنا الله هو الذي تولى قسمتها بنفسه، فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلًا سأله من الصدقة، وفي بعض النسخ سأله عن الصدقة.
- سأله من الصدقة فقال: « إن الله لم يرض في الصدقة بقسم نبيٍّ ولا غيره ولكن » ، كما أشرنا، كل الأموال قسمها الله، سواءً في الميراث، في الغنائم، في الصدقات، « ولكن جزأها ثمانية أجزاءٍ » وإن كان الحديث فيه ضعفٌ لكن معناه صحيحٌ، « ولكن جزأها ثمانية أجزاءٍ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » ، قال الشيخ رحمه الله: فالفقراء والمساكين في قوله عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: 60]،

فالفقراء والمساكين يجمعهما معنى الحاجة إلى الكفاية.

- لا شك طبعًا العلماء فرقوا بين الفقير والمسكين، بعضهم قال إن المسكين أشد حاجةً، وبعضهم قال إن الفقير أشد حاجةً، وفي المذهب عندنا أن الفقير أشد حاجةً من المسكين، وعند الحنفية، المسكين أشد حاجةً، ولكلٍّ دليله، لكن هذا الخلاف الأمر فيه واسعٌ.

لكن عبارة الشيخ تجمع الاثنين، معنى الحاجة إلى الكفاية، يعني من أول ما يحتاج إلى أن يصل إلى حد كفايته، ولهذا قال علماؤنا: إن الفقير هو الذي لا يملك شيئًا، إلى نصف الكفاية، والمسكين هو الذي عنده نصف الكفاية ويحتاج إلى أن يكمل له النصف الباقي، والشيخ جمع الأمرين بهذا التعريف الجميع، فقال معنى الحاجة إلى الكفاية.

ولهذا قال: فلا تحل الصدقة لغنيٍّ وهو الذي قد حصل الكفاية.

- ولا لقويّ مكتسبٍ وهو الذي قادرٌ على الكسب ، ما عنده شيءٌ لكنه قادرٌ على الكسب، فهو إما أنه غنيٌّ وعنده ما يكفي حاجته، أو أنه ليس عنده لكنه عنده قوةٌ بحيث يكسب وهو قادرٌ على الكسب وليس عنده عجزٌ.

والعاملين عليها هم الذين يجبونها ويحفظونها، ويكتبونها ونحو ذلك.

- وهم العاملون عليها بمعنى الإمام هو الذي كلفهم، لذلك قال عاملون عليها، مما يفيد معنى الولاية، لكن لابد أن تكون بولايةٍ بمعنى من الحاكم ومن الإمام، لأنه لو أن تاجرًا كلف واحدًا أن يوزع صدقته أو زكاته لا يعد من العاملين عليها، لو أحد التجار مثلًا كلف مجموعة أو كلف مناديب له يوزعون صدقاته على المحتاجين سواءً كان في بلده أو في خارج بلده، أو له فروعٌ، أو هو مثلًا رئيس شركةٍ، وكلف بعض الموظفين ليوزعوا صدقاته لا يعدون من العاملين عليها، وإنما يعتبر وكيلًا لهذا الغني، لكن العامل لابد أن يكون من قبل ولي الأمر، الإمام الأعظم ونوابه، ولهذا قال: العاملين عليها، فعلى تفيد معنى الولاية، تفيد معنى السلطة.
- والمؤلفة قلوبهم سيأتي كما قال الشيخ في الكلام عن الفيء.

وفي الرقاب، يدخل فيه قال: إعانة المكاتبين وافتداء الأسرى وعتق الرقاب، وقال هذا أقوى الأقوال فيها.

- الأولى قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ باللام ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ بمعنى أن ما ينالونه هو تمليكٌ لهم، وحقٌّ لهم، وهذا يفيد لو أنه أعطي الفقير مبلغًا ثم اغتنى، ثم استغنى أثناء السنة، أو أنه ورث مالًا مثلًا، أو جاءه هبةٌ فإنه لا يرد الزائد، لأنه ملّكه له تمليكًا.
- أما هنا قال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ لا، عدها بحرف الجر في، ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فهو لا يفيد التمليك، إنما يفيد الظرفية.

والأصل في الرقاب، هما العبيد يحررون بمال الزكاة، لكن دخل فيهم كما قال الشيخ المكاتبين وهو الذي كاتبه سيده على أن يشتري نفسه، فيأخذ من الصدقات ويعطي سيده بما يشتري به نفسه.

وافتداء الأسرى كذلك وإن كانوا ليسوا عبيدًا، الأسرى من المسلمين الذين أسرهم العدو فإنهم يفتدون من مال الزكاة.

والغارمين: قال: هم الذين عليهم ديونٌ لا يجدون وفاءها.

- الغارم ذكر العلماء أنه نوعان، غارمٌ لمصلحة نفسه، وغارمٌ لغيره، الغارم لنفسه هو الذي يقع في دينٍ ويعجز عن السداد فيعطى من الزكاة ما يسد دينه، والذي لغيره هو الذي يدخل في الإصلاح بين الناس، يبذل من ماله شيئًا كثيرًا، فهذا أيضًا يعطى كفاء هذه النفس الطيبة وهذا العمل الطيب، والكريم الذي يحاول أن ينقذ به إخوانه الواقعين في ديونٍ، أو من أجل أن يصلح بين هؤلاء المختلفين.

فقال: الغارمين هم الذين عليهم ديونٌ لا يجدون وفاءها، فيعطون وفاء ديونهم، ولو كان كثيرًا، إلا أن يكونوا غرموه في معصية الله تعالى، فلا يعطون حتى يتوبوا.

- هذا تنبيهٌ مهمٌّ وهو أنه الأصل في ما يسوقه الله عزَّ وجلَّ للعبد من رزق أن يستعين به على طاعة الله، سواءً كان كسبًا من المال العام، أو وظيفةً، أو مرتبًا، أو كان من الخاص، سواءً كان زراعةً أو تجارةً أو حرفةً، ويأخذ منها فينبغي أنه لا يصرفها وإنما يستعين بها على طاعة الله، ويكسبها من حلالٍ، وينفقها في حلالٍ.
- أما إذا كان في المعصية قال الشيخ إذا كانوا غرموا أموالهم في معصية الله، فإنهم لا يعطون حتى يتوبوا، بمعنى إذا تاب وإن كان يعطى بمعنى أنه يقال له: لا تعطى من هذا المال حتى تتوب، قال إني تائبٌ، فإذا ظهر منه توبةٌ فإنه يعطى ولو كان المال غرمه أثناء ممارسته للمعصية.

{قال رحمه الله تعالى: وفي قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 60]، قال: وهم الغزاة الذين لا يعطون من مال الله ما يكفيهم لغزوهم فيعطون ما يغزون به، أو تمام ما يغزون به من خيلٍ وسلاحٍ ونفقةٍ وأجرةٍ، والحج من سبيل الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وابن السبيل هو المجتاز من بلدٍ إلى بلدٍ.}

- أيضا هؤلاء من المصارف ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الغزاة، بمعنى المجاهدون في سبيل الله.

ثم قال: الذين لا يُعطون من مال الله ما يكفيهم

- بمعنى لا يأخذون شيئا من بيت المال، بمعنى ليس لهم مرتبات من بيت المال، متطوعون، وهم المتطوعون ينطلقون في سبيل الله، فهؤلاء يعطون ما يغزون به، أو تمام ما يغزون به، إذا كان عنده بعض الشيء فإنه يكمل له من الصدقة أو من الزكاة، من خيلٍ وسلاحٍ ونفقةٍ وأجرةٍ، بمعنى أنها تصرف سواءً على الغازي نفسه أو أيضًا يأخذ ليشتري بها سلاحًا أو نفقةً على نفسه أو أجرةً كما لو استأجر مركوبًا، أو احتاج أن يستأجر سكنًا إلى آخره في منطقة الغزو إلى آخره، فكل هذا داخلٌ في سبيل الله.

ثم قال: والحج من سبيل الله.

- لأنه جاء فيه نصٌّ، حينما جاءته امرأةٌ تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الحج، فقال: «أما علمتِ أن الحج من سبيل الله» أو كما ورد، فالحج من سبيل الله بالنص، لكن غير ذلك لا شك أن بعض أهل العلم يرى أن في سبيل الله أنه أوسع من ذلك.
- لاشك أن لفظ سبيل الله إطلاقاته في القرآن أو السنة، قد تأتي أوسع من ذلك ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 261]، قد تكون أوسع من ذلك، في بعض الموارد، لكن الذي أراد والله أعلم، أن المراد هنا: الغزاة والحج دخل في النص كما قلنا؛ لأنه لو أريد ما هو أوسع من ذلك، لما كان لصيغة الحسم التي في أول الآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ فهي حسمٌ، ومهمٌّ جدًا أن تكون الصدقات محصورةً، وأن تكون مصارفها محصورةً، ولا تكون مفتوحةً، فحينما الله -عزَّ وجلَّ- ذكر في كتابه أسلوب الحصر ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ دل على أنه ينبغي أن يُنظر فيها باحتياط، وعدم التوسع، لأنه ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ وذكرهم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60]، لاشك أن أسلوب الحصر والتعداد، فقراء، مساكين، عاملين، المؤلفة، في الرقاب، غارمين، وتصريفه يدل على أن الأمر مقصورٌ عليهم، ويدل أن في سبيل الله أيضًا لابد أن يكون جنسًا محدودًا، وأن يكون وصفًا أيضًا محدودًا ومنضبطًا، أما لو قلتَ: في سبيل الله، ويدخل فيها القناطر، ويدخل فيها المساجد، ويدخل فيها المشاريع الخيرية، هذا ما كان لوجه الحصر، أو ما كان الحصر ظاهرًا، هذا الذي يبدو والله أعلم.
- ابن السبيل، هو الذي يجتاز من بلدٍ إلى بلدٍ، لأن طبعًا السبيل هو الطريق، نسب إليه؛ لأنه لم يصل بلده بعد، وإن كان غنيًا في بلده، بمعنى كما يعبر العلماء هو المنقطع، ابن السبيل المنقطع، يعني انقطعت نفقته، قد يكون سُرقت، قد يكون إن صح التعبير قد يكون ما حسب في حساباته، فصرف أكثر، فوجد نفسه منفتحًا، أو أنه اختلف في الأسعار، مثلًا ذهب البلد، يظن أنه سيستأجر فندقًا كان يظن أن الأسعار بهذا المعدل أو كذا، المهم أنه كان غنيًا، وكان معه نفقةٌ، ولكن ليس في بلده، وليس عنده ما يستطيع أن يحصل ماله الذي في بلده، فهذا يُعطى بقدر ما يكفي حاجته، ويكفيه أن يوصله إلى بلده.

{قال -رحمه الله تعالى: فصل الثالث من الأموال السلطانية: الفيء.
وأما الفيء فأصله ما ذكره الله -تعالى- في سورة الحشر، التي أنزلها الله -سبحانه وتعالى- في غزوة بني النضير بعد بدر، من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

*وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 6- 10].

فذكر -سبحانه وتعالى- المهاجرين والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم على ما وصف، فدخل في الصنف الثالث كل من جاء على الوجه إلى يوم القيامة، كما دخلوا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: 75]، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: 100]، وفي قوله -جل وعلا: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: 3]}.

- هذا النوع الثالث من الأنواع السلطانية، سبق الغنيمة، وسبق الصدقات، وهذا الفيء.

فقال: وأما الفيء فأصله ما ذكره الله -تعالى- في سورة الحشر، التي أنزلها الله -سبحانه وتعالى- في غزوة بني النضير بعد بدرٍ،

- حينما نقضوا العهد كما هو معلومٌ، وقصتهم معروفةٌ، فذكر الله الآية.
- كما قلنا لكم ، إن الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي تولى قسمة المال بنفسه، فهنا أيضًا قال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ ، وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: 41] إلى آخره، فالمال .. كما ذكرنا .. الله تولى قسمته بنفسه.
- هنا ذكر الله -عزَّ وجلَّ- المستحق الفيء، لله، وللرسول، وأيضًا قال: للفقراء المهاجرين، والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم، فهذه لتوزيع مال الفيء، طبعًا فيما يتعلق فيما سبق، وسوف يأتي تفصيل كلام الشيخ كيف كان الفيء يوزع في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر ثم عمر، طبعًا جاءت الدواوين ، لكن هنا يستدعي وقفةً جميلةً، للمهاجرين والأنصار، وهذه النعوت التي وصفهم الله بها حقيقةً، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ﴾ فذكر فيهم صفاتٍ عجيبةً تخص المهاجرين، والعلماء قالوا: إن المهاجرين أفضل من الأنصار، بل الله -عزَّ وجلَّ- أيضًا أعطى وصف النصرة للمهاجرين أيضًا، لماذا؟ لأنه قال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ، فهم مهاجرون وأيضًا أنصارٌ، من حيث أنهم نصروا هذا الدين، وأيضًا يتميزون بأنهم أخرجوا من ديارهم، فمن يخرج من دياره يتحمل أكثر كما هو معلومٌ، ومشقة الخروج من الديار معلومٌ عِظم أثره على ما فطر الله -عزَّ وجلَّ- عليه البشر ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء: 66]، فجعل الإخراج من الديار قبل القتل، وبنو إسرائيل قالوا لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا﴾ [البقرة: 246]، فالإخراج معلومٌ أنه شاقٌّ على النفوس، بل الله -عزَّ وجلَّ- قال في المستضعفين ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾، وقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ [الحج: 40]، فالإخراج من الديار أمره صعبٌ، ومن هنا كانت هذه الخصيصة للمهاجرين -رضوان الله عليهم-، وأيضًا أثنى الله عليهم بأنهم أُخرجوا يبتغون فضلًا من الله، وأيضًا ينصرون الله ورسوله، وأيضًا زكاهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.
- والأنصار لاشك أن مقامهم رفيعٌ -رضوان الله عليهم أجمعين-.
  - **فأولًا:** الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾، المباءة هي التمكن من الشيء، اتخذوه مباءة، لكن كما تَبَوَّءُوا الدار تَبَوَّءُوا الإيمان، يعني مما يدل على عِظم إيمانهم، وقوة إيمانهم، وكما الإنسان قد يُفهم تعلقه ببلده أو وطنه، هم في الإيمان أشد، فهم أيضًا تَبَوَّءُوا الدار والإيمان.
  - **الثاني:** ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ ، وهذه شهادةٌ عظيمةٌ، لأن المحبة قلبيةٌ، فحينما يشهد الله -عزَّ وجلَّ- للأنصار أنهم أحبوا إخوانهم المهاجرين، لم يكن مجاملةً، ولم يكن من أجل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن مؤقتًا، فهذه منقبةٌ

تستحق الوقوف، أن يزكيهم الله -عزَّ وجلَّ- بأنهم يحبون من هاجر إليهم، بمعنى هاجر من أجل الدين، ولاشك أن عملهم مع إخوانهم المهاجرين في المؤاخاة، والتنازل عن مالهم وعن زوجاتهم شيءٌ عظيمٌ.

أضاف بعد ذلك المحبة، ذكر المحبة وأيضًا نفى عنهم الردة، يعني أحيانًا يكفي أن تقول: يحبون، لكن أن تصرح بالمفهوم المخالف، يدل على عِظم التمكن، قال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ ، هذه منقبةٌ أخرى، وهذه كما قلنا أعمالٌ قلبيةٌ، الله زكى بها الأنصار، وأطلعنا على ما صدورهم، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ ، يعني هم يدفعون ويعطون إخوانهم المهاجرين، لكن ليس في صدورهم شيءٌ؛ لأنه أحيانًا الإنسان إذا أعطاك المال أنت يبقى في نفسك تستتبعه، تتبعه نفسك، وأنه قد يكون منةً أحيانًا لا يصرح بها، هم لا، لا يجدون حاجةً، وأيضًا حاجة نكرةٌ في سياق النفي تفيد العموم، أي حاجةٍ، ليس في صدورهم حاجةً مما نال إخوانهم المهاجرين من المال، ونالهم من الفضل إلى آخره، وهذه منقبةٌ عجيبةٌ، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾.

- **الثالث:** فوق ذلك كله قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾، هذه ليس فقط أزال ما في صدورهم، وإنما عما منح الله إخوانهم وأعطى إخوانهم المهاجرين، إنما أيضًا هم يؤثرون، ويقدمون، ويفضلون إخوانهم على أنفسهم، وهذه مناقب وصفاتٌ، أن يذكرها الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه، تزكيةً للأنصار، ليس بعد هذا تزكيةٌ.

- هذه صفات المهاجرين، وهذه صفات الأنصار -رضوان الله عليهم-، ولهذا قال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، استحقوا هذا البلوغ الرضواني، وهذه الدرجة الرضوانية لصحابة رسوله، ولمن اختارهم الله -عزَّ وجلَّ- لصحبة نبيه، والذين قام عليهم هذا الدين، ولهذا ختم بقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ، مما يدل على أن هذا ممكنٌ، ممكن أن يناله من يعينه الله -عزَّ وجلَّ- على نفسه؛ لأن التعميم هذا ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ، بمعنى أن بالإمكان أن الإنسان يفعل الدرجة، ولاشك أن القضية فعلًا نفسية، وأن يوق الإنسان شح نفسه.

- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ ، هؤلاء أيضًا المستحقون للفيء، وهذه لكل من بعد المهاجرين والأنصار، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.

- كلمةٌ للإمام مالك عجيبةٌ في هؤلاء، قال: إن من نال من الصحابة، أنه لا يستحق شيئًا من الفيء، أيّ إنسان ينال من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن الذين في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يدخل في هؤلاء أبدًا، كما يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً﴾ ، إذا كان لم يمن الله عليك بأن تكون من المهاجرين، ولا تكون من الأنصار، هذه الصفات، أنا أحسب أيضًا أنك إن أخذت بها أحسب أنك تبلغ درجة المهاجرين والأنصار، لأن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، ولهذا قال الشيخ: فدخل في الصنف الثالث كل من جاء على هذا الوجه إلى يوم القيامة، ولهذا أيضًا مهم النظر في هذه الآيات؛ لأن الله أعطى صفاتٍ من أخذ بها -إن شاء الله- يلحق بالمهاجرين والأنصار، فقال في الآية التي أوردها الشيخ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: 75]، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، إذن هذه الصفات الثلاثة، هي التي إذا أعانك الله فاستجمعتها تلحق بمن سبق، وتكون في قول الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ يعني بعد الهجرة، وبعد الفتح، طبعًا انتهت الهجرة كما هو معلومٌ، الكلام هذا كله لما بعد الفتح، لأن بعد الفتح انتهت الهجرة، وأيضًا الأنصار، ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾، وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾، في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ إذن القدوة والذروة في المهاجرين والأنصار، هم صفوة أهل الإسلام، وهم صفوة صفوة خير الناسالمهاجرين والأنصار، الذي يلحق بهم من هؤلاء، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: 100] فالذين اتبعوهم بإحسانٍ يلحقون بهم من حيث عِظم الثواب، ومن حيث رضا الله -عزَّ وجلَّ- عنهم، ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: 100]، والآية الأخرى في سورة الجمعة : ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: 3]، طبعًا لما تفيد المقاربة، هذه كان فيها نفيٌ، لكن تفيد أنهم يقاربون أن يلحقوا بهم.

- المقصود أن هذه الصفات العجيبة للمهاجرين والأنصار، حقيقٌ وجديرٌ بمن أراد الخير لنفسه، أن يتأملها، وأن يجتهد في أن يتمثلها، لأنها صفاتٌ في مكنة البشر، ليست بمعجزاتٍ، وإنما في مكنة البشر أن يستجنها صفات المهاجرين والأنصار، حينما قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَينصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، هذا ممكن يفعله أي أحد، وكذلك أيضًا في قول الأنصار: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ ، ثم ذكر الصفات أيضًا هي التي إن صح التعبير المهدة أو القاعدة أو إن صح التعبير الفرش التي وهي ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾، .. الكلام طويلٌ، بل أنا أقول لكم يا إخواني، إن العمدة في العلاقات هي على ما في القلوب، العمدة في علاقاتك بأهلك وإخوانك وأصدقائك والقريب والبعيد، هو على ما في قلبك، فإذا صفى الله لك قلبك، وإذا أعانك على أن تبلغ بأعمال القلوب مبلغها، فأنت على خيرٍ كثيرٍ، ولذلك قال هنا: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالغل هذا عملٌ قلبيٌّ، وأنت أدرى بنفسك حينما تعالج إن صح التعبير قلبك إن كان في أمراضه، وهو سهلٌ الحقيقة، الحقيقة يسيرٌ على من يسره الله -عزَّ وجلَّ-، والأمور كلها تأتي بالتدريب، وتأتي بالحرص على صفاء القلب، والحرص على حسن العلاقة؛ لأن القضايا الإيمانية منبعها ومصدرها القلب، والقلب هو ملك الجوارح كما يقول أهل العلم، الجوارح كلها تقول: اتق الله فينا، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا، وكذلك اللسان، لكن القلب هو الذي عليه المعول، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «إلا وإن في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»، والله أعلم، وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

